

حاضرة الخلافة

يقول أحد مؤرخى العرب: «إن قرطبة عروس الأندلس، بها من الجمال والزينة ما يبهر العين ويسر النفس، فأمرؤها المتعاقبون تاج مجدها، وقلادتها نظمت من درر استخراجها شعراؤها من بحر اللغة الخضم، وحلتها أعلام الآداب والعلوم، وأهداب حلتها أصحاب الفنون والصناعات».

وهكذا يصور المؤرخ الشرقى مدينته المحبوبة بما شاء من خيال الشرق البعيد.

ولقد كانت قرطبة أيام الخليفة العظيم حاضرة جديرة بالفخر والإعجاب، وإذا استثنينا بيزنطة فلن نجد فى أوربا مدينة تسامىها فى جمال أبنيتها، أو فى حياتها الرخية المترفة، أو فيما تزخر به من أنواع العلوم وفنون الآداب.

إن الموجز الذى نحن بصدده نقله عن مؤرخى العرب فى وصف قرطبة وما كانت فيه من نهضة وازدهار ومجد، إنما يعود زمنه إلى القرن العاشر، وإذا لحظنا أن أسلافنا السكسون فى هذا العهد كانوا يسكنون الأكواخ ويفترشون القصيل، وأن لغتنا لم تكن تكونت بعد، وأن القراءة والكتابة كانتا محصورتين فى عدد قليل من الرهبان - عرفنا ما كان للعرب من مدنية عجيبة، وحضارة منقطعة النظير.

وتظهر المقابلة جلية غريبة بين حاضرة الأندلس وغيرها من المدن إذا ذكرنا أن أوربا كلها فى هذا العهد كانت غارقة فى حمأة من الجهل وخشونة الأخلاق، وأنها لم يكن بها شىء من آثار المدنية إلا ما بقى للإمبراطورية الرومانية من أطياف فى القسطنطينية وبعض أجزاء إيطاليا.

ويقول مؤرخ عربى آخر: «إن قرطبة مدينة حصينة، تحيط بها أسوار من الحجر ضخمة شاهقة، وهى جميلة الشوارع، وكانت فى الزمن القديم مقر سلاطين الكفار، وكانت دورهم داخل سورها المحيط بها، ويشتهر سكانها بالركة والظرف وكرم الخلق وحدة الذكاء، ولهم الذوق الكامل فى مآكلهم، وملابسهم، وانتقاء خيولهم، وإيها كانت الرحلة فى رواية الشعر، إن كانت مركز الكرماء وميدان العلماء والشعراء، ولم تزل تملأ الصدور منها والحقائب، ويبارى فيها أصحاب الكتب أصحاب الكتائب، ولم تبرح ساحتها مجر عوال ومجرى سوابق، ومحط معال وحمى حقائق، وهى من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد، والزور من الأسد».

وهذا المديح الشرقى عرضة للمبالغة والإغراق، ولكن قرطبة كانت جديرة بكل ما ينثر عليها من الإطراء والثناء، ولن تستطيع إذا رأيتها الآن، أن تدرك ما كان لها من جمال رائع أيام الخليفة العظيم، فإن شوارعها الضيقة، ودورها المبيضة بالجص، لا ترسم إلا صورة ضئيلة لما كان لها من العظمة واستبحار العمران، فقد تهدم

«القصر» واتخذ الإسبان أطلاله بعد العز السامق سجناً للمجرمين، ولا تزال القنطرة ماثلة فوق الوادى الكبير إلى اليوم، كما لا يزال المسجد الجامع الذى بناه أول الأمويين عجباً من العجب، ومصدر دهشة للسائحين، ومن المحقق أنه كان أجمل روعة أيام عبد الرحمن الناصر أو بعدها بقليل، حينما زاد الوزير الأعظم (المنصور ابن أبى عامر) فى بنائه.

واختلف المؤرخون فى مقدار اتساع رقعة المدينة، والأرجح أن طولها لا يقل عن عشرة أميال، وكانت شواطئ الوادى الكبير متألثة بالقصور المبنية بالرخام والمرمر، وبالمساجد والحدائق التى عنى فيها أشد عناية بالأزهار والأشجار النادرة المجلوبة من الممالك الأخرى، وأدخل العرب بالأندلس نظامهم فى الرى الذى لم يصل الإسبانيون إلى مثله من قبل ولا من بعد^(١)، ونقل أول أمراء الأمويين نخلة من الشام لتذكره بموطنه، ونظم فيها قصيدة محزنة يندب فيها بعده عن أهله ودياره كما بعدت النخلة عن أهلها وديارها، وقد غرسها فى حديقة حاكى بها حديقة جده هشام بدمشق التى كانت ملعب

(١) يذكر اليتانوسى عناية العرب بالرى بمنطقة بلنسية فيقول: فقد شقوا أنهارها وحفروا ترعها، وأجروا خلجانها وسيروا إليها الماء من جبال نيفادا التى هى مقر الثلوج المستديمة، وبنوا على الترع قناطر كثيرة لحجز المياه ووصولها إلى المنطقة العالية حتى أصبحت هذه المنطقة جنة من الجنان، وكانت دورة الزراعة فيها ثلاثية فى السنة.

لهوه فى أيام صباه، وأرسل رسلا فى كل بقاع الأرض ليجلبوا إليه أندر ما فى البلاد من الشجر والنبات والبذور، وكان بستانيوه غاية فى المهارة والذكاء، فنمت هذه الأنواع الغريبة واعادت الإقليم وانتقلت من حديقة القصر إلى كل بلاد الأندلس، وعرف الرمان ونما وكثر بالأندلس بعد أن جاء فى هدية لعبد الرحمن الداخل من دمشق، فأخذت حبوبه واستنبتت بحديقته^(١).

«وكانت هذه الحديقة تروى بأنابيب من الرصاص، تصب الماء منها تماثيل مختلفة الأشكال، من الذهب الإبريز، والفضة الخالصة، والنحاس المموه، فى أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة، فترسله إلى البحيرات الهائلة، والبرك البديعة والصهاريج الغريبة».

ويحدثنا المؤرخون بكثير من أعاجيب قصور الأمير عبد الرحمن، وما كان بها من الأبواب الفاخرة، التى تفتح على الحدائق حولها أو على النهر، أو التى يمر منها الأمير إلى المسجد الجامع، فى طريق فرشت بالبسط الثمينة لىؤدى صلاة الجمعة.

وكان بعض هذه القصور يسمى «بالزاهر»، وبعضها «بالمعشوق»،

(١) فى الحلل السندسية: لما صار معاوية بن صالح إلى عبد الرحمن أدخل إليه تحف أهل الشام، وكان فى هذه التحف رمان فجعل جلساء الأمير يذكرون الشام ويتأسفون عليها، وكان فيهم رجل يسمى سفرا فأخذ من ذلك الرمان شيئا لطف به وغرسه حتى علق وتم وأثمر، فهو اليوم بالأندلس الرمان السفرى نسبة إلى هذا الرجل.

وبعضها «بالمؤنس»، ورابع «بقصر التاج» وهكذا، فى حين احتفظ قصر خامس باسم حاضرة الأمويين بالشرق وهو «دمشق»، وكان يقوم على أعمدة من الرخام، وقد رصفت أرضه بالفسيفساء وبلغ غاية الروعة والجمال حتى ليقول فيه بعض الشعراء^(١).

كل قصر بعد الدمشق يذم فيه طاب الجنى ولذ المشم
منظر رائق وماء نمير وثرى عاطر وقصر أشم
بت فيه والليل والفجر عندى عنبر أشهب ومسك أحم

ولبعض بساتين قرطبة أسماء مغرية تدعو المرء إلى الاضطجاع بجانب جداولها المتدفقة، والتمتع بشذى أزهارها وأثمارها: «فمنية الناعورة» توحى إليك بإحساس نحو الراحة والنعيم، منصتاً إلى صوت الماء وهو ينصب من الساقية إلى حياض البستان، «مرج الخز» كان بلا شك بستاناً ساحر المنظر لأهل قرطبة، بأزهاره المختلفة الألوان. وكان جريان الوادى الكبير مصدر بهجة وسرور لهم، لأن الشرقيين لا يحبون شيئاً فى الدنيا، أكثر من أن يروا منظرًا يسمعون فيه تمتمة الأنهار. وعرب إسبانيا شرقيون فى كل شىء إلا فى موقعهم الجغرافى.

وقد امتد بين شاطئى النهر جسر فخم به سبع عشرة قنطرة، وهو لا يزال ماثلاً إلى اليوم يشهد بمهارة العرب فى علوم الهندسة،

(١) هو ابن عمار.

وكانت المدينة مزدحمة بالدور الفخمة، قيل إنه كان بها أكثر من خمسين ألف قصر للعظماء ورجال الدولة، وأكثر من مائة ألف بيت للعامة، ونحو سبعمئة مسجد، وتسعمائة حمام.

وللحمامات شأن كبير فى المدن الإسلامية، لأن النظافة عند المسلمين ليست من الإيمان فحسب، بل هى شرط لازم لأداء الصلوات والعبادات عامة، ذلك فى حين أن كان مسيحيو العصور الوسطى ينهون عن النظافة ويعدونها من عمل الوثنيين، وكان الرهبان والراهبات يفخرون بقذارتهم، حتى إن راهبة دونت ببعض مذكراتها فى صلف وعجب: أنها إلى سن الستين لم يمس الماء منها إلا أناملها، عندما كانت تغمسها فى ماء الكنيسة المقدس. نقول: بينما كانت القذارة من مميزات القداسة، كان المسلمون شديدي الحرص على النظافة، لا يجروؤون أن يقفوا لعبادة ربهم إلا إذا كانوا متطهرين، وحينما عادت إسبانيا إلى الحكم المسيحى أمر فيليب الثانى زوج مارى ملكة إنجلترا بهدم كل الحمامات العامة، لأنها من آثار المسلمين!

وكان لا يزال للمسجد الجامع المنزلة الأولى بين مباني قرطبة الضخمة الجميلة، فقد أنشأه عبد الرحمن الداخل فى سنة ٧٨٤ م / ١٦٨ هـ وأنفق فى بنائه ثمانين ألف دينار، حصل عليها من غنائم القوط، ثم أتم هذا المسجد ابنه التقى هشام فى سنة ٧٩٣ م / ١٧٧ هـ بما اغتنمه من حروب أربونة، وكان كل أمير بعده يضيف

جمالاً جديداً إلى هذا المسجد الذى يعد أبديع مثال فى العالم للفن الإسلامى فى أول عهوده. فمن الأمراء من صفح السوارى والحيطان بالذهب، ومنهم من أضاف إليه مئذنة، ومنهم من زاد فى رقعته ليتسع للعدد الضخم من المصلين، وكان عدد بواكيه^(١) تسع عشرة من الشرق إلى الغرب، وإحدى وثلاثين من الشمال إلى الجنوب، وبه واحد وعشرون باباً طليت بالنحاس الأصفر اللماع، وثلاث وتسعون ومائتان وألف سارية، وقد أجريت الفضة^(٢) فى حيطان محرابه المزين بالفسيفساء، وصب فى سواريه الذهب الإبريز واللازورد. أما المنبر فقد صنع من العاج ونفيس الخشب، وهو مؤلف من ستة وثلاثين ألف قطعة منفصلة، رصع أكثرها بالأحجار الكريمة وسمر بمسامير من الذهب، وكان يصل الماء من الجبال إلى الينابيع التى أعدت لوضوء المصلين، وكانت هذه الينابيع تقذف بمائها ليلاً ونهاراً، وبنيت دور إلى الجانب الغربى من المسجد لنزول فقراء المسافرين وأبناء السبيل، وبالمسجد مئات من الثريات التى صنعت من نحاس أجراس الكنائس للإضاءة ليلاً، وكان به شموع ضخمة زنة الواحدة منها خمسون رطلا، كانت تشتعل ليلاً ونهاراً إلى

(١) كانوا يسمون الباكية بالبلاطة.

(٢) فى القرى: الذهب.

جانبي الخطيب أو الواعظ في شهر رمضان، وكان بالمسجد ثلاثمائة خادم لإيقاد البخور من العنبر والعود، ولإعداد الزيت العطر لإضاءة عشرة آلاف فتيل للقناديل، وقد بقي كثير من جمال هذا المسجد ماثلاً إلى الآن، فإن السائحون يقفون اليوم دهشين أمام هذه الغابة من السواري، فيروعونهم فيها منظر لا يكاد ينتهي من كل جانب، ولا تزال سواري الصوان اللامع والرخام المجزع في مواضعها، ولا يزال الزجاج الفاخر الذي استحضره صناع ماهرون من بيزنطة يلعب لمعان الجواهر، ولا يزال المحراب بقبابه المتلاقية يملأ العيون والقلوب، ولا تزال أشجار البرتقال مورقة بصحن الجامع تسير امتداد السواري، فإذا وقف المرء أمام عظمة هذا المسجد وجماله، عادت به الذكرى إلى أيام مجد قرطبة وازدهارها، أيام الخليفة العظيم التي لن تعود.

وأشد بعداً في باب الغرابة مدينة الزهراء - وإن لم تكن أكثر من المسجد حسناً - بناها عبد الرحمن الناصر في أحد أرباض قرطبة لأن إحدى زوجاته - وقد كان مشغولاً بها - تمننت عليه أن يبني لها مدينة باسمها. وكان الخليفة العظيم كغيره من ملوك المسلمين مولعاً بالبناء والتجديد فأجاب طلبتها، وأنشأ مدينة في سفح الجبل المسمى بجبل العروس على بضعة أميال من قرطبة^(١)

(١) بدئ في بنائها سنة ٣٢٥ هـ / ٩٣٦ م.

كان ينفق عليها كل سنة ثلث دخل المملكة^(١) مدة خمس وعشرين سنة، ثم استمر ابنه من بعده في الإنفاق عليها مدة عشر سنين، وكان عدد العمال في كل يوم عشرة آلاف، وكان جملة ما يبني منها في كل يوم من الصخر المنجور المعدل ستة آلاف صخرة، ويعمل في عمارتها في كل يوم نحو ثلاثة آلاف دابة، وأقيم بها من السواري أربعة آلاف كان كثير منها هدية من إمبراطور القسطنطينية^(٢) أو من رومة، أو قرطاجنة، أو سفاقس، أو غيرها، إلى جانب ما كان يؤخذ من مقاطع طركونة والمرية.

وكان بالزهراء خمسة عشر ألف باب ملبس بالحديد أو النحاس المموه، وكان سقف بهو الخليفة بالزهراء وحيطانه من الرخام والذهب وبفوارته تمثال عجيب أهدها إليه ملك الروم، وبعث إليه معه بدرة نادرة، وفي وسط البهو حوض ملئ بالزئبق الرجراج، إلى كل جانب منه ثمانية أبواب من العاج والآبنوس قد رصعت بالجواهر، فإذا دخلت أشعة الشمس من هذه الأبواب، ولاقت اهتزاز الزئبق، ملأت البهو ببريق يشبه لمعان البروق، حتى لقد يحجب رجال الدولة عيونهم بأيديهم لشدة^(٣).

(١) كان دخل المملكة في عهد الناصر عشرين مليوناً من الدينار.

(٢) في نفع الطيب، أن ملك الروم أهدى إليه مائة وأربعين سارية.

(٣) قال ابن حيان: وكان الناصر إذا أراد أن يفزع أحداً من أهل مجلسه أوماً إلى

أحد صقالبته فيحرك ذلك الزئبق فيظهر في المجلس كلمعان البرق من النور ويأخذ بمجامع القلوب، حتى يخيل لكل من في المجلس أن المحل قد طار بهم.

ويجد مؤلفو العرب متعة في التحدث بعجائب الزهراء فيقول بعضهم: «لقد يمتد بنا الحديث إذا اقتصرنا على عد ما بالزهراء من جمال وفن: فهناك الجداول الدافقة، والأمواه المتعرجة، والبساتين الزاهرة، والقصور الفخمة لسكنى رجال الدولة، وهناك صفوف الجند والخدم والعبيد من كل بلد وملة وهم فى ملابس الحرير بين إقبال وإدبار فى شوارعها الفسيحة، ثم هناك ازدحام القضاة والفقهاء والشعراء وهم يمشون فى وقار ورهبة فى أبهاء القصر الفخمة وأفنيته الكثيرة».

وقد قدر عدد الفتيان من خدم القصر بخمسين وسبعمائة وثلاثة عشر ألفاً، يصرف لهم فى كل يوم من اللحم نحو ثلاثة عشر ألف رطل، حاشاً أنواع الطير والحوت، وقد رعد نساء القصر من كل جنس وطبقة بما فى ذلك نساء الخليفة ووصيفاتهن، بأربع عشرة وثلاثمائة وستة آلاف، وكان بالقصر من الخدم الصقالبة والخصيان خمسون وثلاثمائة وثلاثة آلاف، خصص بهم من اللحم أو الدجاج أو الطيور ثلاثة عشر ألف رطل، فمنهم من كان يصرف له عشرة أرطال، ومنهم من كان يصرف له أقل من ذلك على حسب منازلهم، وكان يقذف لحيتان بحيرة الزهراء اثنا عشر ألف رغيف فى اليوم، غير ستة أقفزة من الحمص الأسود تنقع لها فى كل يوم.

وعجائب هذا القصر دونت بإسهاب فى كتب مؤرخى هذا العهد، وخطب بها الخطباء ونظمها الشعراء الذين استنفدوا كنوز

البلاغة فى أوصافهم «وقد أطبق كل من رأى قصر الزهراء على أنه لم يبن مثله، فى الإسلام ألبتة، وما دخل إليه أحد من سائر البلاد النائية والنحل المختلفة، من ملك وارد، أو رسول وافد، أو تاجر، أو جهبذ - وفى هذه الطبقات من الناس تكون المعرفة والفتنة - إلا وكلهم قطع أنه لم ير له شبيهاً، بل لم يسمع، بل لم يكن يتوهم كون مثله، ولو لم يكن فيه إلا السطح الممرد المشرف على الروضة الباهى بمجلس الذهب، والقبّة وعجيب ما تضمنته من إتقان الصنعة وفخامة الهمة وحسن المستشرف وبراعة الأثاث والفرش والسجف ما بين مرمر مسنون وذهب مصون، وعمد كأنها أفرغت فى القوالب، ونقوش كالرياض، وبرك عظيمة محكمة الصنعة، وحياض وتمائيل عجيبية الأشخاص لا تهتدى الأوهام إلى استقصاء التعبير عنها - لكفاه بعض ذلك شرفاً ونبلاً. فسبحان الذى أقدر هذا المخلوق الضعيف على إبداعها واختراعها من أجزاء الأرض المنحلة لكى يرى الغافلين عنه من عباده مثالا لما أعده لأهل السعادة فى دار المقامة التى لا يتسلط عليها الفناء ولا تحتاج إلى الرّم، لا إله إلا هو المنفرد بالكرم».

وقد استقبل الخليفة بقصر الزهراء ملكة نافار وسانشو (شانجة) فى حفل عظيم، وبه جلس ليحيى رسل ملك الروم الذين بعثهم إلى حضرته، وقعد للقائهم يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة ٣٣٨ هـ / ٩٤٩ م فى بهو المجلس الزاهر - قعوداً حسناً

نبيلاً، وكان قد أمر كبار رجال الدولة وقواد الجيوش أن يعدوا لهذه المقابلة خير إعداد وأفخمه، وكان البهو فى أكمل زينة، والعرش فى وسطه يلمع ذهبه، وتتألاً نفائس جواهره، ووقف إلى يساره أبناؤه، فالوزراء على مراتبهم يميناً وشمالاً، ثم الحجاب من أهل الخدمة، وأبناء الوزراء والموالى ورجال خاصة القصر وغيرهم.

وقد فرش صحن الدار بعقاق البسط وكرائم الدرانك، وظللت أبواب الدار وحناياها بظلل الديباج ورفيع الستور، فوصل رسل ملك الروم حائرين من بهجة الملك وفخامة السلطان، ثم تقدموا خطوات وقدموا كتاب ملكهم صاحب القسطنطينية العظمى، قسطنطين بن ليون، وهو فى ورق سماوى اللون كتب بالذهب بالخط الإغريقى.

ولما احتفل الناصر لدين الله هذا الاحتفال، أحب أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه ليذكروا جلالة مقعده وعظيم سلطانه، ويصفوا ما تهيأ من توطيد الخلافة فى دولته.

وتقدم إلى الأمير الحكم ابنه وولى عهده بإعداد من يقوم بذلك من الخطباء، وقام خطيب وأخذ يحاول التكلم فهاله وبهره هول المقام وأبهة الخلافة فلم يهتد إلى لفظة، وغشى عليه وسقط إلى الأرض. ثم قام آخر فحمد الله وأثنى عليه ثم انقطع به القول فوقف ساكتاً مبهوراً^(١).

(١) يؤخذ من ابن خلدون أن المأمور بالكلام أولاً هو أبو على القالى، فلما أرتج عليه قام منذر بن سعيد فارتجل خطاباً ضافياً.

وقد بذل الخليفة جهده فى بناء الزهراء وإتقان قصورها وزخرفة مصانعها، وانهمك فى ذلك حتى عطل شهود الجمعة بالمسجد الجامع ثلاث مرات متواليات، وحينما ذهب إلى المسجد بعد ذلك أذره الخطيب بالعذاب الأليم فى نار الجحيم لتعطيل الجمع^(١).

ورونق قصور قرطبة وبساتينها - مع استهوائه القلوب - يغرينا بجمال آخر لا يقل عن رونقها الظاهر. فقد كانت عقول أهل قرطبة كقصورها فى الحسن والروعة، فإن علماءها وأساتذتها جعلوا منها مركزاً للثقافة الأوروبية، فكان الطلبة يفدون إليها من جميع أنحاء أوربا ليتلقوا العلم عن جهابذتها الأعلام، حتى إن الراهبة «هروسويدا» وهى بعيدة فى ديرها السكسونى بجودرشيم - حينما أخبرت بشنق يولوجيوس لم تستطع إلا أن تثنى على قرطبة وتسميها «ألع مفخرة للعالم». وكان يدرس بقرطبة كل فرع للعلوم البحتة، ونال الطب بكشف أطباء الأندلس وجراحىها من النمو والازدهار نصيباً أعظم مما ناله قبلهم منذ أيام جالينوس. وكان أبو الطيب خلف جراحاً ذائع الصيت فى القرن الحادى عشر، وبعض عملياته الجراحية يطابق اليوم العمليات الحديثة. وجاء

(١) يروى أن منذر بن سعيد بدأ خطبته بقوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَبْنُونَ﴾ (الآيات) ثم وصل ذلك بقوله: فمتاع الدنيا قليل والآخرة خير وأبقى، وهى دار القرار ومكان الجزاء.

ابن زهر^(١) بعده بقليل، فكشف عن أساليب كثيرة في العلاج والجراحة، أما ابن البيطار^(٢) العالم النباتي، فإنه سافر إلى كل بقاع الشرق للبحث عن العقاقير الطبية، وألف في ذلك كتاباً جامعاً. وكان الفيلسوف ابن رشد^(٣) الحلقة الأولى في السلسلة التي وصلت فلسفة قدامى اليونان بفلسفة أوروبا في العصور الوسطى، وكانت علوم الفلك، والجغرافيا، والكيمياء، والتاريخ الطبيعي، تدرس بمثابة وجد بقرطبة، أما الأدب العربي فإن أوروبا لم تر في عهد

(١) هي أسرة اشتهرت بالبراعة في الطب والأدب، أولها أبو مروان بن زهر، نال حظوة كبيرة عند مجاهد ملك دانية فطار ذكره بالأندلس، ثم ابنه أبو العلاء بن زهر، كانت له منزلة سامية في عهد المرابطين، ثم عبد الملك ابنه، اشتهر بالطب في عهد الموحدين، ثم ابنه الحفيد أبو بكر كان طبيباً أديباً، ثم ابنه عبد الله.

(٢) هو أبو عبد الله المالقي النباتي، سافر إلى بلاد الأغرقة وأقصى بلاد الروم، ولقى جماعة يعانون هذا الفن وأخذ عنهم معرفة نبات كثير وعابنه في مواضعه، واجتمع أيضاً في المغرب وغيره بكثير من الفضلاء في علم النبات، وكان لا يذكر دواء إلا عين في أي مقالة هو من كتاب ديسقوريدس وجالينوس، وجعله الكامل بن أيوب رئيساً على العشابين بدمشق، ثم خدم الملك الصالح أيوب بمصر، ومات فجأة سنة ٦٤٦ هـ.

(٣) هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد، من أعظم مفكري الإسلام وفلاسفته، ولد بقرطبة سنة ٥٢٠ هـ واتصل ببيعقوب بن عبد المؤمن، وبرع في الفقه والطب والفلسفة، وتولى قضاء إشبيلية واستمر بها خمساً وعشرين سنة، وكان الطبيب الخاص لأبي يعقوب يوسف ثم لولده المنصور، واتهمه بعض خصومه بالزندقة فنفي من المغرب إلى قرطبة، ثم دعي ثانية إلى مراكش، وأعظم آثار ابن رشد شرحه لفلسفة أرسطو، مات سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٥ م.

من عهدوها حفاوة بالأدب وأهله كما رأت في الأندلس حين كان الناس من كل طبقة ينظمون الشعر، ويظن أن هذا الشعر هو الذى أوحى للشعراء المغنين بإسبانيا بأناشيدهم القصصية وأغانيتهم، وهو الذى حاكاه شعراء «بروفانس» و «إيطاليا».

ولم تكن تعد الخطبة أو الرسالة كاملة إلا إذا تضمنت أبياتاً ترتجل أو تختار من مآثور الشعر الرصين، ويظهر أن العالم الإسلامى اتجه بروحانيته إلى آلهة الفنون، فمن الخليفة فى عرشه إلى النوتى فى سفينته، كنت تسمع النظم الفائق فى مشاهد الأندلس وجمال مدنها، ثم فى روعة خرير الأنهار وسحر الليل الساجى وقد هدأت فيه النجوم، ثم فى نشوة الحب والخمر ومجتمع الأانس وقد اختلس المحب ساعة لقاء بفاتنته التى ترمى بقوس حاجبها القلوب^(١).

وقد بلغت الأندلس الغاية فى الفنون فبناء مدينة كالزهراء أو مسجد كالمسجد الجامع، ما كان ليتم على هذا الوضع الرائع إلا إذا بلغ العمال قمة المهارة فى صناعاتهم، وكانت صناعة الحرير من الصناعات الممتازة بالأندلس، فقد قيل إن عدد النساجين بلغ فى قرطبة وحدها مائة وثلاثين ألفاً.

(١) يظهر أن الشعر كان طبيعة فى أهل الأندلس. قال ياقوت فى الكلام على شلب: وسمعت ممن لا أحصى أنه قل أن ترى من أهلها من لا يقول شعراً أو يعانى الأدب، ولو مرتت بالفلاح خلف فدانه وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه فى أى معنى طلبت منه.

واشتهرت المرية بمنسوجاتها الحريرية وبسطها، ووصلت الفخارة فى الإتقان حدًا عجيبيًا، فقد انتهى الفن بالصناع بجزيرة ميورقة إلى أن أبرزوا أوانى فخارية تلمع ببريق معدنى، ومنها استعارت إيطاليا اسم أوانيتها التى دعتها بالميورقية، وكانت تصنع الأوانى النحاسية والحديدية والزجاجية المزججة والمذهبة بالمرية، ولا يزال لدينا بعض نماذج من العاج المحفور وقد كتب عليها أسماء عظماء قرطبة.

نعم إن هذه الفنون نقلت من الشرق بغير شك، ولكن صناع الأندلس كانوا تلاميذ نجباء لأساتذتهم من البيزنطيين، والفرس، والمصريين، فوصلوا إلى درجة النبوغ فى صناعة الحلى، وبقي من ذلك إلى اليوم أثر عجيب من آثار ابن الخليفة العظيم، لا يزال يحفظه الإسبان فوق المذبح الأعلى لكنيسة قرطبة، وهو علبة ملبسة بالفضة، مرصعة بالدر، وقد كتب عليها بالعربية دعاء وتمجيد لأمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله، وهو دعاء يعد غريبًا فوق مذبح للمسيحية.

وكانت الحلى ومقابض السيوف دقيقة الصنع بارعة الفن، كما يدل على ذلك سيف الأمير أبى عبد الله آخر أمراء غرناطة، واشتهر المسلمون دائمًا بصناعة المعادن حتى إن بعض الأشياء التافهة كالمفاتيح، كانت جميلة الصنعة فائقة الحلية، والثريا البديعة التى صنعت لمسجد أمير غرناطة محمد الثالث والتى لا تزال ماثلة بمجريط (مدريد) خير مثال لتفوق العرب فى نقش البرنز وإتقان زخارفه.

ووصلت الأندلس إلى منزلة فى صناعة المخرمات لم تصلها إلا دمشق والقاهرة، ولا يزال نقرأ فى كثير من أمكنة غرناطة تلك

العبارة: «لا غالب إلا الله» وهى شعار أمرائها، وقد سبق أن تحدثنا عن الأبواب النحاسية بقصور قرطبة، وبعض هذه لا يزال باقياً إلى اليوم بكنائس إسبانيا.

وطالما سمع الناس عن سيوف طليطلة، ومهارة أهلها فى صناعة الصلب، وهذه الصناعة - وإن كانت فى إسبانيا قبل الفتح الإسلامى - زادت تقدماً فى أيام الخلفاء والأمراء بقرطبة، واشتهرت المرية، وإشبيلية، ومرسية، وغرناطة بصنع الدروع وآلات الحرب. وجاء بوصية الدون بدرو: «وأوصى أيضاً لابنى بسيفى القشتالى الذى صنع بإشبيلية، ورصع مقبضه بالذهب ونفيس الجوهر». وقصارى القول إن قرطبة كانت بحق «مفخرة للدنيا»، فى الفنون والعلوم وأسباب المدنية جمعاء.

